عينة قراءة غير مخصصة للبيع.
إن استخدام النص والصور، ولو جزئيًا، بدون موافقة كتابية من دار النشر هو انتهاك لحقوق النشر ويخضع للعقوبة. يسري ذلك بوجه خاص على تصوير النسخ أو الترجمة أو الاستخدام الإلكتروني.

توماس هورليمان

الماسة الحمراء

رواية

ترجمة هبة شريف

واحد

مشيت وسطهم مثل الغريب. لم تعد تصلني منهم أي كلمة، ولا كلمة واحدة، ولا نظرة، لكن فجأة بدأت الأشياء تحدثني، مثل ذلك الرشاش القديم. أو تلك الأرجوحة التي تشبه أراجيح هوليوود. أو يحدثني كوب فارغ وضع على طاولة الحديقة، وبداخله زنبور يطن. أصبح كل شيء من حولي أكثر وضوحًا، كأنما بدأتُ أرى كل شيء بشكل صحيح للمرة الأولى، في حين أنني كنت أرى كل شيء للمرة الأخيرة. الشمس ساطعة في السماء، ومع ذلك تشعر بقدوم الخريف. لفت ماما، "ميمي"، شالًا حريريًا حول كتفيها، وتساءلت بيني وبين نفسي إذا كنت سوف أحملها معي هكذا في ذاكرتي، في تلك الوضعية وهي ترتدي ثوبًا أصفر وأبيض من تصميم "پوتشي" وتحمل مشروبًا في يدها، وإذا كنت سأحمل معها جزءًا من صورة حديقتنا في ذلك المساء الصيفي الدافئ. كيف كان "سكوت" سيتصرف في حالتي؟ هل كان سيقضي آخر أيامه قبل ذهابه إلى الجليد القطبي في غرفة تبريد ليعّوِد نفسه على الصقيع؟ أو هل كان سيسلم نفسه مرة أخرى للشمس، للهيبها المسائي الذي ينبسط على الأرض الضبابية؟ الدير الذي سألتحق بمدرسته الداخلية، يقع في الجبال. بُني الدير تمجيدًا لملكة السماء وكان اسمه "مريم سيدة الثلج".

يظهر الميجور "شتادلر" كما يحدث دائمًا عندنا (أوهل ينبغي أن أقول: عندهم في هذا البيت؟)، كلما توشك أحداث مهمة على أن تقع، وظهوره هو ما يعلن عنها. يبعث به الكولونيل في كل مرة من أجل «تسوية الأمور». كان الميجور "شتادلر" هو مَن يقوم بتحضير الألعاب النارية في عيد ميلاد الكولونيل: مجموعة من الصواريخ تنطلق من شجيرات الورد وتثير رعب "ميمي"، وفي عشية عيد الميلاد كان يزين الشجرة. كنت أتهكم أنا و"ميمي" على الميجور، لكننا رغم ذلك كنا نتفهم أن الكولونيل يحتاج في هذه الأوقات من أوقات السلم إلى مرؤوس يوجه له الأوامر. «سيادة الميجور، فلتعّلِم ابني الصغير كيف يحزم الحقيبة بشكل صحيح.»

«أمرك، سيادة الكولونيل.»

ولدهشتي كانت الحقيبة موجودة بالفعل، كانت "ميمي" قد أحضرتها بنفسها من العلّية وقطرت بعض الزيت داخل الأقفال الفضية. كان غطاء الحقيبة الجلدي مترهلًا عند الزوايا، والمقبض كان باليًا، ولكن تلك الحقيبة كانت تمثل جزءًا من تاريخ العائلة: بهذه الحقيبة جاء جدنا الأكبر "زيندر كاتس" في بداية القرن التاسع عشر مهاجرًا إلى سويسرا من غاليسيا، التي كانت آنذاك أفقر منطقة في الإمبراطورية النمساوية المجرية. ثم حمل جدي هذه الحقيبة فيما بعد في أسفاره العديدة وكان يحرص بكل فخر

على أن يلصق على الحقيبة، التي أطلق عليها اسم "الحقيبة الغاليسية"، جميع أنواع ملصقات الفنادق والمطارات. رفرفت حول مقبض الحقيبة البالي بطاقة صعود، كانت بطاقة صعود لإحدى السفن من ساوثهامبتون إلى نيويورك، وثمة بطاقة حمراء تحت ورقة شفافة تحمل اسم وعنوان "ميمي كاتس" – فـ "الحقيبة الغاليسية" كانت قد صحبت أمي إلى مدرستها الداخلية ثم فيما بعد إلى الكونسرفتوار في برن، حيث كانت واحدة من الطلبة المتفوقين، وبرعت في عزف موسيقى "ماكسيم فاديف". ثم وقعت "ميمي" في حب ملازم في الجيش من النظرة الأولى عندما مر بها على ظهر حصانه– كانت نظرة رفت فيها الرموش. وبعد ثلاثة أسابيع أعلنت الخطوبة، وبعد ثلاثة شهور الزواج. أما عن نوايا "ميمي" لاصطحاب "الحقيبة الغاليسية" في جولة موسيقية، فقد تبخرت في الهواء.

فوجئت بوجود أبي، الكولونيل. حذر "ميمي" بكل وضوح ألا تضع في الغد المساحيق وأن ترتدي تنورة تغطي ركبتيها وجوارب صوفية، وأن تتخلى عن ارتداء القبعة وأن تغادر المنزل مبكرًا تحت أي ظرف. وأضاف بصوت مرتجف ومتأثر أن مدير المدرسة الدينية شارك في حملة الرايخ العسكرية على روسيا، وأنه خرج سالمًا من الحرب العالمية وأصبح رجل دين. وقال إن الناس يبجلونه في جميع أنحاء سويسرا، وإن علي أن أعتبر نفسي محظوظًا لأنني سوف أصبح رجلًا على يد مربٍ ومرشدٍ مثله.

كانت السيارة الجيب تقف أمام البيت ومحركها يدور وجهاز الإرسال بها يصدر أصوات حشرجة، والميجور خلف عجلة القيادة مرتديًا خوذة على رأسه وقد استعد للمعركة والمناورة – كان الكولونيل دائمًا دقيقًا في مواعيده. وجه لي تحذيرًا أو اثنين – أن أنظف أظافر اليد بطرف السكين، أن أتبع تعليمات رجل الدين، أن أكبت تثاؤبي في أثناء القداس – ثم وقف أمام مرآة المشجب، وسمح لـ "ميمي" أن تضع معطفه من الجلد الأسود حول كتفيه ووضع القبعة العسكرية على مفرق رأسه وتحدث إلى صورته في المرآة: «يا بني الصغير الحبيب، أنا لا أعترف بالفاشلين.»

انطلقت السيارة الجيب وتأرجح الهوائي المثبت بها في الهواء.

*

استيقظنا في اليوم التالي، أنا و"ميمي" مع الفجر كما أُمرنا أن نفعل، لكن استغرقت مسألة ارتداء الملابس لدى "ميمي" بعض الوقت كالعادة. وضعتُ "الحقيبة الغاليسية" في السيارة، وفي نفس اللحظة فُتحت نافذة في الطابق العلوي وسط أوراق الأشجار الذابلة والتي تكسو الجانب الخلفي من البيت – كان الميجور "شتادلر" قد صف سيارتنا "الفورد تاونوس إم 17" أمام المنزل بعد تفتيش دقيق: ضغط الهواء في الإطارات، مستوى الزيت، خزان البنزين.

ما الذي حدث الآن؟ هل كان على "ميمي" أن تخرج الآن تحديدًا من وسط أحلامها لتطل من النافذة؟ انبعثت من حجرة النوم موسيقى البيانو، كانت غالبًا سوناتا لـ "شوبرت"، الموسيقار المفضل لديها، نادت ماما من النافذة: «"أرتي دارلينج"، "آرتي" حبيبي، هل يمكن أن تصعد إلى هنا لدقيقة واحدة؟»

في غرفة النوم في الطابق العلوي كان الدُرج السري الذي يحوي مجوهراتها مسحوبًا من داخل الكومودينو، و"ميمي" تقف في حيرة وهي تمسك في يدها اليسرى بسلسة ذهبية وفي يدها اليمنى ميدالية معلقة بسلسلة ذهبية.

«هل تعتقد أن الآباء في الدير ينتظرون مني أن أرتدي صورة العذراء حول عنقي؟ سأشعر بالإحراج إذا أساءوا الفهم وفسروا ذلك على أنه نفاق – لا تريد ماما أن تسبب لك أبدًا أي ضرر. آه، ناولني من فضلك البروش. لا، البروش الآخر.»

أخرجتُ وردة ذهبية من علبة المجوهرات المبطنة بالقطيفة الحمراء، ووقفت "ميمي" أمام المرآة لتشبك الحلية على صدرها الأيسر.

قالت: «العذراء المقدسة هي الوردة السرية. وهذه المؤسسة الدينية مخصصة لتمجيدها. هل سيفهم الآباء هناك الإشارة؟ من المفترض أنهم مثقفون للغاية. لكن هذا يعني أنه من المحتمل أيضًا أن يروا الظلام في الوردة، أو يروا بداية كل شيء، إذا جاز التعبير. "دارلينج"، حبيبي، إنك لا تساعدني على الإطلاق. فلتقل رأيك من فضلك.»

«"ميمي"، إننا نضيع الوقت.»

قالت "ميمي" بصوت يشبه صوت الفلوت: «نضيعه بالبحث عن المجوهرات؟ لا يا بني. تُخرِجنا المجوهرات خارج حدود الزمن. تملك المجوهرات شيئًا من الخلود مثل القصائد الجيدة.»، ثم قررت ارتداء صدفة فضية صغيرة.

*

في العبّارة التي عبرت البحيرة، بقي معظم الركاب في سياراتهم، لكن وقفنا أنا وبعض الآخرين أمام حاجز العبّارة مثل ظلال بلا حياة. أخذ المرسى الذي أقلعنا منه يبتعد شيئًا فشيئًا فلاحظتُ أن عبور البحيرة هذه المرة مختلف عن المرات السابقة. كانت البحيرة في عصر ذلك اليوم الرطب تبدو كأنها تحت زجاج لامع، ابتعدت كلتا الضفتين بمسافة، فبهت منظرهما وشعرتُ كأننا نبحر على صفحة نهر الأشيرون.

"أساطير القدماء الكلاسيكية" كان كتابي المفضل، وقد وضعته داخل "الحقيبة الغاليسية"، ومعه كتاب يوميات الكابتن سكوت، وتساءلت بيني وبين نفسي في خوف وقطيع من النوارس يمر فوق رأسي، عمّا إذا كنت سوف أتعرض في أثناء عبور

البحيرة إلى تجربة مشابهة للتجربة التي عاشها الأموات الذين فقدوا ذكرياتهم في خلال عبورهم بين الضفتين. كان المساء قد اقترب عندما انطلقنا بالسيارة بعد ذلك وسط الوديان متجهين صوب الجبال. اقترحت "ميمي" أن نتناول بعض الطعام في إحدى القرى على الطريق، هكذا ضيعنا الوقت من جديد، وعندما خرجنا من المطعم الصغير استقبلنا سكون غريب. لا أثر لأي سيارة على الطريق، ولا زقزقة لعصفور. وفي نهاية الوادي كانت حبيبات الثلج على قمم الجبال تلمع تحت وهج المساء، وفي الشرق بدأت أولى النجوم تلمع على الجدران السوداء. أصبح الشارع أكثر انحدارًا، وكان ينبغي على "ميمي أن تعيد تغيير ناقل السرعة عند المنحنيات العنيفة من السرعة الأولى إلى الثانية، ثم من الثانية إلى الأولى مرة أخرى، إلا أن الأحذية ذات الكعب العالي المدبب لم تكن مناسبة لهذه المناورات، وكان لديها الحق في أن تقول ذلك. هكذا قادت السيارة على السرعة الأولى طوال الوقت وهي تصعد الجبل بسرعة لا تناسب السرعة الأولى، فشكل ذلك ضغطًا على السيارة الفورد. كانت ذراعاها مفرودتين، ونصف جسدها العلوي قريبًا من عجلة القيادة. ولم يكن من الضروري أن تكون وليًا من أولياء الله لتتنبأ بأن الماء في جهاز التبريد يغلي، وأن انخفاض درجة الحرارة المفاجئ وكذلك عدم توهج حبيبات الثلج على قمة الجبل سوف يؤدي حتمًا إلى كارثة.

فجأة سمعنا صوت ارتطام أدهشنا أن صوته كان خفيفًا.

خرجت السيارة الفورد عن الطريق عند أحد المنحنيات الحادة وانزلقت إلى حفرة وبدأ المحرك يصدر صوت حشرجة وقد تعالت من تحت غطائه خيوط الدخان. هل انتهى وقت دراستي في مدرسة الدير حتى قبل أن تبدأ؟ فتحتُ الباب عنوة مصطدمًا بشجيرة متجمدة وتسلقتُ الحفرة زاحفًا على أربع لأصل إلى الشارع. هنا لاحظتُ فورًا ما أخرس العصافير وما منع السيارات: إنه الشتاء. لقد أتى الشتاء. ومن وسط السكون كانت الرياح تعوي بصوت خفيض، رياح جبلية مع رقائق ثلجية متطايرة. هنا في الجبال التي تقع وسط سويسرا كان الثلج قد بدأ يتساقط بالفعل ونحن ما زلنا في آخر أيام الصيف. كان الدير هناك بالأعلى كأنه يطفو وسط السحب السوداء. أخذت الأجراس تدق من بعيد، بينما كنت أحاول تقدير الخسائر. بدا أن مياه جهاز التبريد قد انخفضت حرارتها الآن في هذا الجو البارد، وتشممت رائحة حوض الزيت فأدركت أنه لا يسرب الزيت. كانت مؤخرة السيارة ترتفع مائلة في الهواء مثل سفينة تياتنيك في أثناء الغرق (والتي نجا من الغرق فيها جدي "كاتس" ومعه "الحقيبة الغاليسية" بعد سلسلة من الصدف غير المعقولة)، فتحتُ صندوق السيارة بأصابع مخدرة من أثر البرد. وكان ينبغي أن أتوقع ذلك. كان المثلث الفوسفوري مفقودًا.

«"أرتي دارلينج"، هل توقف سيارة من السيارات المارة؟»

كانت "ميمي" قد فتحت علبة المساحيق وانهمكت في تحويل مقصورة السيارة الدافئة بسبب سخونة المحرك الزائدة، إلى صالون تجميل. أعادت وضع أحمر الشفاه، ووضعت القليل من البودرة على وجنتيها، ثم بصقت في علبة صغيرة بها لون أسود وأخذت ترسم رموشها الطويلة المثنية.

قلت: «سوف نصل متأخرين.»

قالت "ميمي" وهي تركز نظراتها في مرآة السيارة: «يصل الجميع معي متأخرين. هل وضعت المثلث الفوسفوري على الطريق؟»

«إنه مفقود، لقد تركته أنتِ في مكان ما.»

«هذا غباء مني. أليس كذلك. لابد وأن أشتري دستة من هذه الأشياء.»

كان واضحًا بالنسبة لي سبب راحة البال التي تتمتع بها "ميمي". اسمها في واقع الأمر "ماريا"، وقد سميت على اسم جدتها، وعندما كانتا تتعرضان لأي مشكلة، هاتان "الماريتان"، كان يظهر دائمًا سيد شاب ويعرض عليهما المساعدة. في منطقة "جلجثة" الواقعة خارج القدس، كان "يوسف" هو من ظهر ليقدم المساعدة، وغالبًا تصرفت العذراء أم الإله وهي تحت الصليب بنفس الطريقة التي تصرفت بها الآن "ميمي" عندما خبط سائق سيارة رياضية على النافذة الجانبية، فسألته بنبرة موسيقية:

«أوه، هل لديك وقت لتساعدني؟ هذا لطف شديد منك.»

*

كان دير "ماريا سيدة الثلج" يبدو بواجهته الرمادية العريضة التي تواجه السماء مثل حلم تحول إلى حقيقة. بني الدير وكأنه سيظل باقيًا للأبد. إنه مجموعة من الجبال لكن بها مئات النوافذ، والعديد منها مضاء. حتى "ميمي" عجزت عن الكلام عند رؤيته. تقع الكاتدرائية في وسط الدير ويحيطها برجان من الجانبين، وبها ثلاث بوابات تستقبل من خلالها الحجاج. تسللت أصوات الغناء إلى الخارج يصاحبها عزف على الأرغول، لكنها كانت كأنها تأتي من بعيد، كأنها من داخل السماء. "ميمي" التي كانت في العادة تشعر بالبرد حتى في أثناء الصيف، بدت وكأنها نسيت تحت هذه الواجهة الحجرية الرهيبة أن الشتاء قد حل. سقطت رقائق الثلج على قبعتها الصيفية. توقف الغناء، ثم بدأ من جديد، ثم سُمع صوت أربع دقات تأتي من أعلى حيث تختفي قباب الأبراج وسط ليل الشتاء، ثم توالت أصوات دقات صغيرة عالية مثل الرعد، دقات ساعة كاملة، إنها الثامنة مساء.

قالت "ميمي" بابتسامة ساحرة: «"أرتي دارلينج"، أخشى أننا قد تأخرنا قليلًا.»